الجزآن الثالث والرابع — المجلد الثاني والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

ذو الحجة ١٤٠١ هـ
تشرين الاول ١٩٨١ م

منابع الإلهام والثقافة
في الأدب العربي

الدكتور
عادل جاسم البياتي
كلية الآداب

« هذه دراسة اعدتْ بعد ضمّ طائفة من الملاحظات كنت قد دونتها في اثناء عملي الطويل ، وأنا اكتب سلسلة من الأبحاث العلمية في حقل المعرفة والأدب . وقد جاءت هذه الملاحظات في شكل اضافات جوهرية الى ما سبق أن أعلنته عن ثقافة الأديب العربي قبل الاسلام ، والمكوّنات الأولى لصرح بنيانه المتكامل ، وذلك في محاضرة كانت قد اعدت لهذا الغرض قبل ما يقرب من عشرة اعوام [1] . ولا يخفى ما ينطوي بين التاريخين ، الأمس واليوم ، من تفاوت في الشقة تجعل المرء يراجع استنتاجاته ، ويعيد النظر في بعض مواقفه الفكرية من التراث ، وقد يضيف أو يحذف . ولا يتسع مجال النشر هنا لاستعراض كافة النتائج السابقة ، ومقارنتها بما استجد في اليد من محصّلة اكثر حداثة وفق منظور المعاصرة المتطور ، لكنني عملت جهدي لكي أنقل أجزاء حيّة من الكائن القديم صمدت في وجه رياح التغيير والتطور ، وزرعها في جسد الكائن الجديد الذي أحاول الآن أن أحدد معالمه ووجوده وأبعاده أمام نظر القارئ ».

إن مفهوم « الثقافة » الذي بنيت عليه أسس البحث لم يتغير لديّ بل سررت حين اكتشفت أن مصطلح Culture الانكليزي يوازي مصطلح « ثقافة »

(١) تليت المحاضرة في اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين ، ونشرت في مجلة الكتاب التي كانت تصدر عن الاتحاد ببغداد في العدد الرابع لعام ١٩٧٥ بعنوان المنابع الثقافية للشاعر الجاهلي .

العربي في مدلوله القديم ، فيما يتعلق بالأرض وحراثتها وزراعتها . اشار الى ذلك البكري في معجمه حيث قال [١] : « وغرس قسيّ . وهو الأب الأعلى لقبيلة ثقيف ، القضبان فأنبتت ، فقالوا : قاتله الله ما أثقفه ، فسمي ثقيفاً يومئذ » وهي قضبان الكروم . فكلمة ثقافة العربية أصلها ثقافة زراعية ، وكلمة Culture الانكليزية أصلها ثقافة زراعية [٢] ايضاً وفي الكلمتين اشارة الى بدء انتقال البشرية من المجتمعات الرعوية المتحركة وبدء ظهور الاقطاعيات الزراعية الثابتة . فالكلمة تعني في اصطلاح العصر الحديث ، كل ما يمتلكه الانسان من وسائل الحضارة في عهوده الأولى ، يدخل ضمن ذلك وسائل استيطانه وادوات عمله ومواد مهنته وخامات التصنيع المعروفة يومئذ . وبذلك يضيق مصطلح البداوة السائد خطأ وينعدم ، فتصبح معرفة الاعرابي في ضرب اطناب سرادقه او خيمته وتأسيس حوض الماء له ولحيوانه واتقان مهنة الرعي والتدجين والتكثير والانتاج في مختلف وجوهه ضرباً من الثقافة . ويمتد ذلك الى الحواضر المختلفة في الوطن العربي حتى تشمل فنون الصناعات الحربية والسلمية ، والزراعة والعمران والمعارف الانسانية الأخرى على صعيدها الديني والاجتماعي كالكهانة والحيازة والعرافة والتزلف للآلهة والعيافة والقيافة والمعتقدات والفلك والطبابة والصيدلة والحجامة ، وعلى مستواها القومي كاللغة ولهجاتها والتاريخ وفروعه والمثل وضروبه والسير الشعبية وانواعها ، وفي حقلها الانساني كالتجارة والأسفار واللقاءات الأخرى . وقد نظر ابن قتيبة الى هذه المناشط الثقافية ومعالمها في الشعر فقال عندما أراد أن يعرف القراء بكتابه الذائع [٤] : « وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره ، وعمن وضعه بالهجاء ، وعما أودعته العرب من الأخبار النافعة والأنساب الصحاح والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة ، والعلوم في الخيل ،

---

(١) يراجع معجم ما استعجم ٦٦/١ .

(2) Webster'S New World Dictionary By David B. Guralink New York 1961 See (Culture) P. 175.

(٣) الشعر والشعراء ٦٣/١ ، ٨٢ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

والنجوم وانوائها والاهتداء ، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلاً ، والبروق وما كان منها خلباً أو صادقاً ، والسحاب وما كان منها جهاماً أو ماطراً » ويقول في موضع آخر من الكتاب : وكل علم محتاج الى السماح ، واحوجه الى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشيّ واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه » .

واطلاق مصطلح العلم على الشعر توجيه صحيح ، فقد كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، وهو مما ذكره الرواة من أقوال الخليفة عمر بن الخطاب (رض) [1] وكان الشاعر عالم القوم كما كان كاهنهم ، ويدخل في مكوّنات ثقافته ، السحر ايضاً . لذلك لا نستغرب ما روى من أن لبيد بن ربيعة الشاعر ارتدى حلة السحرة وبرز في مظهر « المشعوذين » والقى ارجوزته العينية أمام الملك النعمان ابن المنذر في مهاجاته المعروفة للربيع بن زياد العبسي [2] . ويدخل في عداد المنابع الثقافية ارتباط الشاعر برئيّ او صاحب من الجن ، وما رافق هذا المعتقد من ارتباط بالعوالم الغيبية والمنطلقات الماورائية سواء ما وراء الغيب او ما وراء الموت أو ما وراء الطبيعة . وقد كان الناس قبل عصر الجاحظ مولعين باغراض الشعر وفنونه وأعاريضه ، مؤثرين ميادينه على سائر الميادين . لكن الجاحظ بما كتبه ، جعل للدراسات النقدية التحليلية وللنثر الفني مكانة في نفوس الناس لم تكن مألوفة ، فأعاد للآداب عامة فاعليتها وللشعر خاصة مكوناته وثقافته . إذ هذا الموروث العظيم ينعكس في عمل الأديب في شكل ثقافة زاخرة تجد صداها في الرؤية الذاتية للشاعر او الكاتب او الروائي او القاص وغيرهم . فنحن بصدد تحجيم المعالم الثقافية المتعددة من خلال الشعر .

---

(١) العمدة ١/٢٧ .

(٢) غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بالامالي للشريف المرتضى ١/١٣٦ تحقيق ابو الفضل ابراهيم – مصر ١٩٥٤ .

وقد تكون للشاعر خصوصية في التعامل مع هذه الخامات ، واعادة بنائها بعد هضمها وتمثيلها ، ثم تقديمها للأمة صيغة جديدة تعبر عن معنى مجرد ، لكنه يرتبط بالقضية ارتباط الجوهر بمعناه ونفاسته وعرقه . أما المعنى المجرد ، فمثاله أن (السيف) لم يعد لدى الفنان سيفاً في صورته الاعتيادية باعتباره آلة للطعن أو القتل ، بل تحول الى رمز شعري يعبر عن قضية . وكذلك الموجودات الأخرى في حجمها المادي او ابعادها المعنوية . وهذه الخصوصية في الشعر تنعدم في غيره ، لأن أية ظاهرة اجتماعية او اقتصادية يمكن أن تدرس في ضوء التحديات المتعددة والضغوط المختلفة من بيئة وطبيعة ومناخ وتحولات قسرية ، فتعمل في خلقها وتطويرها وابداعها ، وقد تعمل في اخمالها واضعافها واخفائها ، الا الشعر ، فليس لأنواء الطبيعة ولا ضغوطها المتباينة ولا شمسها المحرقة ، وحتى شمس المناطق الجليدية النادرة ، ولا غناها ولا فقرها ، أية فاعلية في قدرته الالهامية أو نمطه أو مقداره أو قوة أسره . إن أمراً واحداً يظل عاملاً في زخم وفاعلية يغني الشعر ويثري عطاءه المادي . . إنه الانسان العربي عبر تاريخه البعيد وحاضره ومستقبله ، هو الصانع الوحيد ، يمتزج بأرضه ومناخه وبالطبيعة المتلونة الممتدة من قلب صحارى شبه الجزيرة وسيناء ذات المزاج الثقيل الى اطراف اليمن السعيد ، وحتى البساط الأخضر الممتد من ارض السواد واشجار الأرز فوق جبل لبنان الى دلتا النيل المخصبة الممرعة . لقد لاقت هذه الفرضية صدوداً من بعض المعنيين في حقل المعرفة والثقافة . والناس — كما قيل — اذا وجدوا في البديهيات خروجاً على مألوفهم ، وربما تهديداً لما في أيديهم ، قاوموها وحاربوها ، فكيف بالفرضيات ؟ ! ! . . ولدى رجوعي الى فريضتي بالمدارسة والنقد ، وجدت أنني لم أكن واضحاً بالشكل المعقول ، لذلك اضيف هنا بأن المقصود بالانسان العربي عبر تاريخه البعيد وحاضره ومستقبله هو الشاعر وقدرته الإلهامية التي هي من تركيب الخالق في أعماقه يوم ركب اهواءه وأمزجته وطباعه . فالموهبة الالهامية اذ تتفجر ، لا تنظر

الى بيئة بعينها ولا حضارة بذاتها ولا بداوة ايضاً . فحجم العملية الشعرية لا يتأثر ببيئة ولا يتفاوت في حدود الجودة والاتقان بوحي من زمان أو مكان . فالحضارة قد تضيق والشعر يتسع ، وقد تتسع الحضارة والشعر يضيق . مبدأ أقره علماؤنا من قبل . وهذا نص ما قاله ابن قتيبة في مقدمته لكتابه « الشعر والشعراء » [1] (ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في اوله » وقد اثبتت الدراسات الحديثة صحة ما ذهب اليه ابن قتيبة . وكان الجاحظ قد حاول مثل ذلك ، حين أورد ، كأن الجاحظ (٢٥٥ هـ) يرد على ابن سلام (٢٣١ هـ) في نظريته التي لم تستقم له في توزيع الشعر على بيئات ، فقال الجاحظ : « وليس ذلك لمكان الخصب ، وانهم أهل مدر ، وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم من الشعر كما قد علمتم » ثم يجري الجاحظ المقارنة بثقيف فيقول « وثقيف سكان الطائف ، ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وان كان شعرهم أقل فان ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب » [2] .

لقد ارتبطت قضية الالهام الفني في عصر ما قبل الكتابة بالغيب عن طريق قرين من الجن أو صاحب او رئيّ او شيطان ، وزعموا أن ما يأتي به الشاعر انما هو املاء يملى عليه ، خارج ارادته ، ولا فضل للشاعر فيه سوى أنه واسطة للبشر ، بينهم وبين الغيوب . وتقدم لنا بهذه المناسبة فاتحة كتاب الجمهرة لأبي زيد القرشي معلومات غنية بهذا الصدد [3] . وهي تحدرات ثقافية عرفها الساميون منذ القدم ، حين قرر شاعر منهم بأن الاسطورة المعروفة باسطورة « ايرّا » اي

(١) الشعر والشعراء ص ٦٣ .

(٢) مدخل الى الأدب الجاهلي ص ٢٥٠ وتراجع مناقشاته أيضاً .

(٣) تراجع مقدمة كتاب الجمهرة لأبي زيد القرشي التي تعد من المقدمات النفيسة في الدراسات الكلاسيكية والفكر الغيبي .

« إلّه الطاعون » لم يكتب قصيدتها من نفسه وانما ظهر له الآلّه في الرؤيا وأملى عليه نص القصيدة ، فلما استيقظ استذكرها ودوّنها دون أن يضيف اليها او ينقص منها شيئاً مما أمـــلاه الإلّه [1] . وقد تسببت هذه الموضوعة الغيبية في اشكال كبير عند نزول معجزة القرآن الكريم ، وذلك حين قرنوا وحيه وتنزيله بما يوحى للشاعر وينزل عليه ، وقد جاء هذا الاختلاط بسبب الالهام الغيبي الآلهي للرسول (ص) والزعم الالهامي للشاعر أيضاً وبسبب لغة القرآن التي حيرت الجمهور بين أن تكون نثراً فنياً أو شعراً دينياً غامض المأخذ ، لم يجدوا له شبهاً في كتاب سماوي أو صحيفة دينية . وقد اوضح القرآن مسألة الوحي الآلهي ، كما اوضح مسألة القرين الشعري حيث ورد قوله تعالى « هل أنبّئكم على من تنزّل الشياطين ، تنزّل على كل أفاك أثيم . . » وهي من سورة الشعراء ، فعرف الناس – لأول مرة بعد مضيّ ما يزيد على ستمائة عام من مولد المسيح عليه السلام – بان ما ينزل على الانبياء ، انما هو وحي من الله عن طريق ملك كريم وما هو بشيطان رجيم مما ينزل على الشعراء . ثم تظهر قضية (الملائكة والجن والشياطين) وهل كانت من ضمـــن موروثات العربي الدينية قبل الاسلام . ولدى الرجوع الى مادة (ملك) في المعجمات ، وجدنا انها لا تسعف بشيء ، لكن مادتي « ألك » و (لأك) تلقيان ببعض الضوء على كلمة ملك (بالفتح) التي تشتق منها (الالوكة) وهي الرسالة ، مما تفيد ببعض الصلة الوظيفية بين الملك وما يحمل من رسالة سماوية . وهذا هو الذي دفع ببعض علماء اللغة أن يعزو كلمة (مألك) الى (ملك) بالفتح ، وانها كانت تعني مخلوقاً اثيرياً من غير الإنس ، ومثلوا لذلك يقول الشاعر الجاهلي[2] :

ولستَ لإنسيّ ولكن لمألكٍ تنزّل من جوّ السماء يصوّبُ

وعند عزو البيت الى الطرماح بن حكيم – في رواية – يبطل الاستشهاد به .

(١) ملحمة كلكامش ص ٢٤ بعناية طه باقر طبعة رابعة ١٩٨٠ .

(٢) اللسان لابن منظور مادة (ألك) و (لأك) . ولفظة الملائكة وردت في شعر أمية والاعشى .

وقد ارتبطت كلمة ملك (بالفتح) مع كلمة (ملك) بالكسر ارتباطاً وظيفياً ايضاً، لأن الثاني يتمتع بتفويض آلهي نعود اليه بعد قليل . ولا عجب في معرفة العرب لكلمة (مألك) التي هي : ملك كريم ، لأن العرب أمة موحدة أصلاً ، داهمها الشرك والوثنية فيما بعد ، وبالأخص معرفة عرب الشمال لها ، فقد كانوا موحدين احنافاً خلاف ما كان الجنوب عليه من التعدد والشرك بحكم تكوينهم الثقافي والجغرافي وصلاتهم الحضارية عطاءً واخذاً مع العالم الخارجي . ويبدو لي ان النزاع التاريخي التقليدي الذي تطرحه كتب التراث، وكانت نهايته على يد كليب ابن ربيعة ثم عملية الانتقام اليمنية بالنيل من (إلّه) كليب المنتصر وذلك بتسليط ناقة البسوس على حمى الإلّه وتلويث قدسيته مما جر حرباً طويلة الأمد ، كان مبعثه هذا التعدد في عبادة اهل اليمن ، والميل الى التوحد في عبادة عرب الشمال الذين كان الصراع فيما بينهم وبالأخص من جانب الأحناف دموياً للقضاء على ظاهرة التعدد التي تطرح التجزئة بوضوح ، والأخذ بالتفريد على الأقل او بالتوحيد أصلاً لأنه يطرح المفهوم الصحيح للأمة ووحدتها . وستنعكس آثار هذه العقائدية (الايديولوجية) على نظامهم السياسي . ومن هنا كان لأبي عبيدة أن يقرر بأنه لم يتوّج معدّي قط [1] أي لم ينصبوا عرشاً وملكاً ، وانما اقتصرت النظم الملكية على القبائل العربية الجنوبية ، فكان ملوك الشمال قحطانيين جنوبيين ، لأنهم من نسل الآلهة أو أنه يستمد سلطته من الآلهة ، فقد كان الملوك اراباباً في عقيدة العرب ، وكان الناس يقدسونهم ، وقد ورد في معتقدات السومريين أن الآلهة كانت تحكم الارض قبيل الملوك ، فاما تبوأت عرش السماء خلفت الملوك بعدها على الأرض ، وفوضتهم سلطة الربوبية في ادارة أمر الناس . وكان الملوك في نظر بعض الاقوام آلهة تعبد ، وقد حاول الملوك في الاصقاع

(١) العقد الفريد ٢/٢٤٤ قال ابو عبيدة عن ابي عمرو بن العلاء : لم يتتوج معدى قط ، وانما كانت التيجان لليمن ، فسألته عن هوذة بن علي الحنفي فقال : انما كانت خرزات تنظم له . وكان الرسول قد كتب الى هوذة كما كتب الى الملوك .

الشمالية والوسطى أن يحملوا الناس على هذا المعتقد ففشاوا . فكان الملوك يلقون القتل على ايدي الفرسان الثائرين دون رهبة ، حتى ان التاريخ ليروي لنا مقتل طائفة كبيرة منهم على ايدي الشجعان العرب . وان احدهم ليشير بصراحة الى مبدأ التحريم السائد في قتل الملوك ، ثم يعرض جرأته وبسالته في مقارعة الظالمين منهم [1] :

نعاطي الملوك السلم ما قصدوا بنا ... وليس علينا قبلهم بمحـرّم
وكائن ازرنا الموت من ذي تحية ... اذا ما ازدرانا أو اسفّ لمأثـم
وقد زعمت بهراء أن رماحنـا ... رماح نصارى لا تخوض الى الدم

ثم يستطرد في ذكر اسماء الملوك الجنوبيين الذين قتلوا بسيوف قيسية . وكان الالهام الشعري منسوباً لعبقر ، وادٍ في بلاد العرب تسرح فيه الجن ، فعرف الوادي باسمهم « وادي جن عبقر » ثم « وادي عبقر » فنسبوا الجنون والعبقرية أو جنون العبقرية الى هذا الوادي ، وكذلك الشعراء فقد نسبوا قرناءهم الى هذا الوادي ، فكان لكل شاعر جني عبقري يتقمصه ويلقى الشعر على لسانه ، حتى رويت لبعضهم في ذلك حكايات ونقلت اخبار ولقاءات غريبة بين الشاعر وقرينه ، حتى اعتقد الناس الى ما بعد الاسلام بأمد طويل أن الشعراء لا يلفظون الا ما يلقى عليهم من قبل عباقرة الجن المتطلعين الى الغيب المستشرفين لأسراره ، وان الشعراء كانوا ينعتون قرناءهم من الجن بنعوت تعزوهم الى البلاغة والفصاحة ، ويشتقونها من طبيعة العملية الايصالية والالقائية للشعر العربي القديم الذي كان يعتمد الرواية في النقل ، فعرف بعضهم باسم قرين فلان من الشعراء مثل (قرين مهلهل) في شعر لسراقة البارقي :

ولقد اصبت من القريض قصيدة ... أعيت مصادرها قرين مهلهل

(١) المفضليات ص ٢١١ (مفضلية ٤٢) تحقيق : احمد شاكر وعبدالسلام هارون – دار المعارف . طبعة رابعة وتراجع قضية قتل الملوك في مقدمة كتاب أيام العرب لأبي عبيدة .

وقال لبيد بن ربيعة في جن عبقر :

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

ووردت اشارات اخرى الى جن عبقر في شعر زهير وحاتم وغيرهما . وكان اسم الجني الذي اقترن بامرئ القيس يقال له (لافظ بن لاحظ) وصاحب عبيد بن الابرص يقال له (هبيد) ورئي النابغة يقال له (هاذر بن ماهر) وراوية الأعشى يقال له (مسحل) [1] .

وكان ، عند ظهور الاسلام ، لا بد من تغيير لنظرية الالهام الشعري ، بعد أن تلقّى الرسول الوان التهم بصدد ما يوحى اليه ، فأصبح شيطان الشاعر العربي المسلم ملاكاً ، وارتبط الهام بعضهم بالملاك الحامل للرسالة كما في حالة حسان ابن ثابت وقول الرسول (ص) يخاطبه ويحضه على هجاء المشركين «اهجهم وجبريل (روح القدس) : معك » [2] فألغيت بذلك موضوعة الجن في الاسلام بالنسبة للشاعر الملتزم، وهذا الحديث صحيح ثابت رواه شعبة واورده البخاري وكذلك أحمد في مسنده .

هذا هو العالم الغيبي للالهام الشعري الذي حاولت الثقافات العربية الأولى أن تسمو به لتميزه وتمنحه خصوصيته العقائدية . وقد استمر هذا العالم الاسطوري الشعري (الميثوبي) الساحر الخلاق ممتداً بفضائه الرحب وسمائه الواسعة مغطياً العملية الشعرية طيلة المرحلة التاريخية الحتمية التي مرت بها الثقافة العربية حينذاك، قبل أن تدخل مرحلة جديدة متطورة . ومن هذا المنطلق يأتي حكم الجاحظ سليماً فيما يخص الالهام الفني للأديب العربي ، ناثراً كان ام شاعراً حيث قال « وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة

(١) تاريخ الادب العربي قبل الاسلام ص ٨٠ نشر وزارة التعليم العالي العراقية ١٩٧٩ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ٢١٧/١ .

ولا مكابدة ولا إجالة فكرة . وانما هو أن يصرف همه الى الكلام ، والى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر » ورد هذا في البيان والتبيين في الصفحة الحادية والعشرين من المجلد الثالث للطبعة الثانية . وليس القصد من كلام الجاحظ أن الأديب العربي فارغ لايستعين بثقافة ولا يجيل ذهنه بفكرة . وانما ذهب الى ما ذهب اليه المتقدمون في نظرية الالهام الفني ، الا انه خفّف جانبها الاسطوري بقوله أن ما يأتي به الأديب العربي « كأنه الهام » لا يحتاج الى افتعال الألفاظ والعبارات والى جهد الفكرة ، يشير بذلك الى ما نسميه اليوم بالأدب الانشائي ، الا أن الجاحظ ادخل فيه كل جانب من جوانب العمل الأدبي ، فجاوز اموراً نحن اليوم اكثر التفاتاً اليها .

وأفادت مشاهدات بعض المستشرقين ، بأن الشعر قد يزدهر في مناطق ذات صيغ حضارية محدودة أو بيئات ذات معطيات جغرافية حادة مثل بقاع الاسكيمو بدو الجليد . لذلك تكون نظرة ابن قتيبة أوسع من نظرة ابن سلام في طبقات فحول الشعراء عندما قرر بأن اقواماً من العرب لم يُعرفوا بالشعر ولا اشتهر بينهم ، لأنهم لم تكن بينهم « نائرة » ، أي فتن ومشاحنات وحروب وثارات تهيج الحماسات والمشاعر . فاذا صح مثل هذا الاستنتاج فهو يشير الى انعدام ضرب من الشعر محصور في هذا المجال من النشاط الذهني ، أما المجالات الأخرى التي يقال فيها الشعر أو يكتب ، فالمناخ يبقى مفتوحاً لها .

اذن كان القصد مما افترضته هو أن أعيد الى الموهبة الشعرية اعتبارها المهدد من قِبَل مَنْ يرى للزمان أو المكان او الجنس فضلاً على الموهبة ، فكان في توجيهه الغاء لدور الإنسان ومكوناته ، وعلى وجه التحديد ، الانسان العربي ،

وبذلك أخفقت ازهى الحدائق وأغنى الرياض والبساتين في أن تجعل عصافير الدوحة أجمل غناءً من تغريد العنادل ، كما لم تمنع الفلوات والقفار اسراب الحمام أن تسجع بأعذب الألحان في العودة الى الأهل والحنين الى الأوطان ، لأن الموهبة خُلقت في اعماقها . إن انتفاء الشاعر عن وطنه يخلق منه حمامةً مسجعةً وان عودته اليه تجعل منه عندليباً مغرداً ، فهو في الحالتين شاعر ، لكن موضوع فنه يأخذ أبعاداً تناسب حالاته ، وهي « حالات » تتحكم فيها مختلف الضغوط . فاختناق الموهبة الشعرية ليس في داخل البيئات الجغرافية المتغيرة وانما يشعر الأديب بالاختناق اذا تغيرت البيئة الثقافية فجأة بعد استقرار ، وقد تكون المتغيرات قاتلة ، فقد خمد صوت الشاعر الجاهلي تميم بن مقبل ، وجعل شعره موقوفاً على بكاء الجاهلية في الاسلام عند شعوره بالغربة الروحية بعد انتهاء مجده الدنيوي في عهد الوثنية ، فهو يذكر « تلبيات الوثنيين في الحج قبل الاسلام ، وزيارات بني عك وحمير وغيرهما للاوثان قبل أن يحل بالديار « قطا الأجباب » يرمز بها للمسلمين ، وهي قطا تحطّ على حافات الآبار المعشبة ، فتنهش العشب وتسبب في ثلم حواشيها :

ومالي لا أبكي الديار وأهلها ... وقد زارها زاور عك وحميرا

أتاها قطا الأجباب من كل جانب ... فنقرّ في اطرافها ثم طيّرا

وزاد من عذابه حين فرق الاسلام بينه وبين امرأة ابيه التي تزوجها على عادة اهل الجاهلية ، اذ يتزوج امرأة الأب اكبر ولده بعد وفاته . وأعقبت ابن مقبل اصوات شعرية متعددة خمدت بعد أن استسلمت جدران مكة وانهارت قلاعها الراسخة امام استبسال العرب الموحدين ، فلاذ شعراء عديدون بالفرار حتى هلكوا ولم يحسس لهم على أثر [1] .

(١) المحبر ص ٣٢٥ وديوانه ص ١٢ وكان العرب يسمون الرجل الذي يخلف أباه على امرأته : الضيزن . قال أوس بن حجر :

والفارسية فيكم غير منكرة ... فكلكم لأبيه ضيزن سلف

فهي شعيرة مجوسية . واورد ابن حبيب اسم زوجة ابيه من قول ابن مقبل نفسه ، وكانت تدعى دهماء :

وبهذا ، تصبح جميع موجودات البيئة ، خامات اولية في مكونات الثقافة ، أما الموهبة والسليقة والبديهة ، وكل ما تمنحه يد الخالق للمخلوق فهي الهام للنفس البشرية خارج حدود ارادتها ، يؤكد ذلك قوله تعالى [1] : « ونفس وما سواها فألهمهما فجورها وتقواها » أما الجبال والبوادي والبراري والمدن والحيوان من ناقة وفرس وجمل ، فانها تتحول الى اشارات ورموز ذات دلالات ، يستنشق منها الشاعر ملءَ رئتيه ثم يتمثله في دمه ويمرره عبر قنوات حسه المرهف ووجدانه النابض وخياله الواسع . وان النظر في العوالم الشعرية يكون في درجة من البعد واختراق السجف بحيث يتجاوز الباحث حدود العالم الواقعي الملتصق بالشاعر ، والذي يتناول منه الشاعر خاماته واوليات عمله ليحقق العالم الشعري المنشود ، كما يصنع علماء الفضاء اليوم ، وهم يجمعون من باطن الأرض وظاهرها مواد مركبتهم الفضائية لتنطلق عبر الأثير الى عوالم جديدة . فالشاعر القديم صانع قدير ، فمن هذه المواد الأولية التي يعمل على تجميعها وتصنيفها تخرج من بين يديه صورة وفكرة وحياة . . وها هنا موضع الاعجاز في الشعر الجاهلي إذ تصبح الناقة والجمل والفرس وحجارة الطلل وخيمة القبيلة ودرعها وسيفها ورمحها وكل جرم صغير او كبير من اجرام السماء والأرض حياة وثقافة وفكرة تعبر عن هموم الانسان في الميلاد والموت والخلود والفناء . فلولم تكن هذه الخامات هي «الحيثيات» التي منها يشيد الشاعر قصوره وقلاعه واسوار مدنه الكبيرة ، فمن اين يأتي بالمواد الأولية المطلوبة . وهذا هو عين الالتزام الذي ننادي به اليوم ، وهو ايضاً الاعجاز الذي نفتخر به . ألم نقل عن القرآن الكريم ، إن من وجوه إعجازه نزوله بلغة العرب ومن عين معانيهم واخيلتهم ومكونات ثقافتهم وتاريخهم وما يحيط بهم ،

= هل عاشق نال من دهماء حاجته في الجاهلية قبل الدين مرجوم

وذكر مثلا آخر لمنظور بن سيار الفزاري الذي تزوج امرأة ابيه مليكة وقال فيها :

الا لا أبالي اليوم ما صنع الدهر وقد ذهبت مني مليكة والخمر

(١) سورة الشمس ٤٧/١١

ثم تحداهم أن يأتوا بمثله ، فوقفوا مندهشين الى اليوم ، وهم مَنْ هم لغةً وبلاغة وبياناً ، وقفوا تتوزعهم عوامل الضعف والهوان تجاه هذا الكلام الجليل المعجز ، ولو فتشت في اوليات مواده لوجدتها حديثاً عن حياتهم وحياة حيوانهم : بقرة أو ناقة أو فرس، ونباتهم وارضهم وتاريخهم وقصصهم واساطيرهم ، وكانوا يعرفونها ويسمعون عنها من ابائهم ، ثم في الشرائع الاسلامية الجديدة التي هي قلب الدين الجديد وسر عظمته وسيرورته .

والشعر الجاهلي يتناول بلغته وموسيقاه هذه الخامات ، وكذلك شرائعه الوثنية وشعائره الرمزية وطقوسه الاحتفالية في المروءة والكرم والشجاعة والخمرة والثأر . ومن هنا ظهرت نظرية البلاغيين والباحثين الاسلاميين في الأساليب والافكار السهلة الممتنعة . فجميع ما في العالم الخارجي من مظاهر الكون والطبيعة والجماد والبشر في امتزاج غريب مع الابعاد الزمنية الثلاثة والمكان وثقافة الأمة ، يتكامل في العقل البناء المثالي للشعر ، وتتوفر في اليد المحصلة العملية له .

ومما يلاحظ على الشعر الجاهلي شدة التصاقه بمظاهر الكون والطبيعة ، وبالجماد أيضاً . أما الطبيعة ، فمنها المتحرك ومنها الساكن الصامت . وأقرب مظاهر الحياة اليه هو الحيوان : الناقة والجمل والفرس والكلب والظبية والطير وحيوان الوحش . ومنها مخلوقات اسطورية كالسعلاة والغول وعنقاء مُغرب ، ومنها أثيرية كالأرواح والجن والشياطين . أما الجماد فتكاد كل ظاهرة طبيعية أو كونية تجد لها موضعاً في الشعر الجاهلي . ففي الطبيعة مسايل المياه ومجاريها ومساقطها والنهران والبحار والوديان والجبال والسهول والهضاب والرمال والحصى والحجارة ، حتى الحجارة المنصوبة في اعماق الصحارى (الصوى) وبقايا الطلول وآثار المدن الراحلة . وفي الكون تتجلى الرؤية العينية له عن طريق البصر ، فاذا توقفت حدود الرؤية البصرية بدأت الرؤية الشعرية للكون ، وقد يستعين الشاعر بالرؤية الدينية الوثنية كالتعبير

(١٨) يراجع كتاب تايلور للدكتور احمد ابو زيد (دار المعارف ١٩٥٨) .

بالبلية ، وهي ناقة ترافق الميت في رحلته الطويلة الى العالم الثاني البعيد بعد أن يبعث وينفض التراب عن اكفانه .

قال جريبة بن أشيم الفقعسي[1] :

يا سعد إما أهلكن فـانني ... أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلاً ... في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعيـر صالح ... وتَقِ الخطيئة إن ذلك أصوب
ولعل لي مما جمعـت مطيـة ... في الهارِ اركبها اذا قيـل اركبوا

والهار : الحشر . وقد ورد في البلية شعر كثير ، قال ابو زبيد الطائي يصف نسوة مسلّبات في مأتم فشبههن بالبلايا :

كالبلايا رؤوسها في الولايـا ... ما نحات السموم حرّ الخدود

وقد تكون الرؤية دينية لكن غير وثنية كما صورها أمية بن أبي الصلت في النشاط الكوني وحركة النور والظلمة ، ويأتي السؤال : لماذا هذا الاندماج والامتزاج؟ إنه العالم القديم يتعاون كله من أجل الوصول الى اكتشاف السر في حقيقته الغامضة إنه يبحث عن نفسه الغائبة ، وهو يبحث عنها في كل زاوية من زوايا الحياة والطبيعة والكون . فالمدن التاريخية والحصون الأثرية مثلاً والتي وردت في الشعر عكست ثقافة الأديب العربي قبل الإسلام وصوّرت الجوانب العمرانية العربية التي اصبحت بالنسبة للشاعر الجاهلي نفسه تراثاً يستخدمه الشاعر بما يملك من مقوّمات الذكاء والقدرة التعبيرية على الايحاء من خلال قصص التاريخ والعمران[2] فضلاً عن كثير من النصوص التي ابرزت الشاعر العربي قبل الاسلام مناضلاً

(١) مجلة كلية الاداب – جامعة بغداد – عدد خاص بتكريم الاستاذ طه باقر ١٩٧٨ مقالة (بعنوان : المدن التاريخية والحصون الأثرية في الشعر قبل الاسلام) للدكتور عادل البياتي .

(٢) مجلة الجامعة – اصدار جامعة المرصل – العدد الرابع لسنة ١٩٧٩ مقالة بعنوان : نضال الوحدة واثره في الشعر قبل الاسلام ص ١٠ للدكتور عادل البياتي .

ومثقفاً في قضاياه المصيرية، طموحاً نحو وحدة العرب التي وجدت طموحها الحقيقي في مسيرة العرب الاسلامية [1] ، ثم ثقافة الشاعر العريقة بصلات امته الحضارية بالعالم القديم وبروزها في شعره [2] .

والانسان بابعاده العميقة أعز منابع الالهام الفني لدى الأديب والشاعر والفنان وبالنسبة للعربي القديم ، كان الانسان ، منفرداً ومجتمعاً ، رجلاً وامرأة ، أشد مصادر الالهام والثقافة التصاقاً بالأديب والشاعر والفنان ، حتى الطفولة بوجوهها المتغيرة وتنوعها بين طفولة الانسان وطفولة الحيوان ، كل هؤلاء يلهمونه في انتصاراته كما يلهمونه في هزائمه وكذلك في حبه وعشقه . وكان الانسان يحرك لواعج الشاعر في الغربة والحنين الى الاوطان . واذا اجملت معاني الالهام الانساني (البشري) للشعراء والادباء والفنانين القدماء العرب ، فان الحب أنبل هذه المنابع بما يحمله من معان متعددة وصور متنوعة ومدلولات متباينة . وتفسر ظاهرة الحب بحسب منطلقاتها ، لكنها ، مع ذلك ، تبقى مصدر الهام عنيف للعملية الفنية .
وكما الهمت (الحبيبة) شاعرها ، الهم (الفارس) معجبيه وعشاق نموذجه الفذ ، وألهم (الأمير) ممدوحيه وطلاب رفده وعطائه و (الشيخ) مريديه وطلاب علمه . وبوجه عام تعد الانسانية اروع لوحة موحية للالهام الفني في تاريخ الثقافة العربية الأولى .

وان ما يتصل بالتاريخ الغيبي للأمة ، فان الشاعر يتناول نقطة صغيرة يكثفها في صورة رمز موح خاطف من تاريخ البشر الذين سكنوا بلاد العرب » . . وجودهم الروحي داخل شبه الجزيرة ، وتحركهم في ارجائها ، وتعاطيهم وتعاملهم معها ومع انفسهم ، وانقسامهم وانقسام شعبهم وقبائلهم ثم حروبهم وعباداتهم ، واندثار

(١) مجلة كلية الاداب – جامعة بغداد العدد ٢٤ لسنة ٧٩ مقالة بعنوان : صلات العرب الحضارية واثرها في الشعر قبل الاسلام للدكتور عادل البياتي .
(٢) يراجع ديوان النابغة والأعشى والحطيئة .

أمة منهم وظهور أخرى ، وارتقاؤهم في الحضارة ، وهبوطهم في سلم الحياة على اثر نكسة او انهيار او دمار . وهذه اخبار اصطلح المؤرخون الأوائل على تسميتها بقصص العرب البائدة ، وما بقي من الشعر يعطي الماماً بسيطاً بها وبشخوصها ومواقعها أو اسماء الوقعات والأماكن . ولا يعدم الشاعر فكرة ينتزعها او موعظة تتردد في ثنايا الاسطورة ، لكنها في واقعها ذات طابع ديني جديد لأنها مكتوبة بمؤثرات اسلامية ، وانها افتقدت الأصل الوضعي اي اللغوي ، ثم انحلّت في اسلوب القصاصين ومصنفي الكتب في العصور الوسطى حيث لم ترد عن العلماء الأوائل الا اشارات واهية حولها ، على عكس قصص « أيام العرب » المروية بلاغة علمائها ورواتها الأوائل الذين امتدت اسانيدهم الى ما قبل الاسلام . ومع ذلك ، أصاب الأيام التحريف والتغيير في لغتها ومحتواها ، وهي مسأله طبيعية ، حيث يصيب التغيير كل مظاهر الحياة الانسانية لتناسب شكل الحياة الجديدة . وحتى الأعمال الفصيحة (المثقفة) تتطور (أي تنتقل من طور الى طور) وتتغير الى مأثورات شعبية بسبب ما تتعرض له الأمة من عوامل القهر والقسر والسلب . وقد جرى مثل ذلك على الآداب الاجنبية فتعرضت روايات شكسبير أو حياة جان دارك للتغيير عندما أخذت بعداً شعبياً . وان سيرة عنترة ، وهي وثنية لا جدال ، سُحبت عليها غلالة زاهية من الافكار الاسلامية مع ما يكتنفها من اضافات شعوبية متأخرة .

واستطاع الشاعر الجاهلي ان يعكس لنا من معطيات هذه الأساطير اشكالاً ملحمية مفقودة كالذي فعله الأعشى في قصة زرقاء اليمامة وقصة وفاء السموأل أو ما حاوله الحطيئة في قصة الكرم وما تعمقتها من التحدرات الدينية القديمة لشعيرة الكرم الوثنية قبل أن تأخذ وجهها الاسلامي الجديد ، أو ما فعله النابغة الذبياني وهو يسترجع المأثور (الفلكلور) في حكاية الراعي والأفعى [1] .

(١) الاساطير في بلاد ما بين النهرين ص ٦ ، ٢٨ طبع وزارة الثقافة – بغداد سنة ١٩٦٨

لكن الشكل الفني المتطور ، وهو الوجه الشعري الأصيل ، قد سقط وبقي الجذر الاسطوري ، خلاف ما في ايدينا من الملاحم العربية القديمة (السامية) التي ضاعت كعوبها الاسطورية وبقيت اهراماتها الملحمية الشعرية .

وقد التفت الباحث الاستاذ صمويل هنري هوك في كتابه : « الاساطير في بلاد ما بين النهرين » [1] الى هذه الظاهرة ، فأخذ يصنّف الأعمال الشعرية تصنيفاً علمياً باجراء عماية فرز دقيقة لها ، فردّ الأصول الملحمية الشعرية الى جذورها الاسطورية العراقية (السومرية) ناظراً في الواح الملاحم والاساطير الأولى ، مما ظهر لي فيما بعد أن هذه الجذور الاسطورية هي طقوس دينية تحولت إلى أصول ملحمية كانت في عصرها موسمية احتفالية . واذن فقد اندثرت اساطير العرب الأولى ، وغاب عنها وجهها الملحمي ايضاً ، ولم يحفظ المأثور الشعبي (الفلكلور) الا بقايا أو جذور القصة ، وهو اصلها الاسطوري ، وضاع وجهها الشعري المنشود . ولا نعرف الاسباب المختفية وراء هذا الفقدان ، وان كنا نقرر ، وليس ظناً أو تخميناً ، انها الكتابة ومن ثم الاسلام . فانعدام التدوين أو ندرته وراء اختفاء المدونات ، فاو كانت كثيرة لوصل ، ولو جزء يسير منها . وما ذكره ابن سلام في طبقات الفحول من انشغال المسلمين بالجهاد وبمدارسة القرآن والحديث والسنة وما يشاع من منع مقاطع واقسام من الشعر الوثني ، وما استنتجته دراسات المستشرقين وبوجه خاص، البروفسور يجيس بلاشير ، من تحرج رواية الشعر الوثني ، هي عوامل فاعلة بقوة في اختفاء المرويات .

لقد نفذت على الآداب العربية القديمة ، وبالاخص الشعر ، عملية تصفية أو فرز قاسية جداً ، يلاحظ آثارها في مطالع الدعوة الاسلامية وفي كتاب ابن سلام المذكور ، وكتاب ابن قتيبة (الشعر والشعراء) وكتابات الجاحظ وغيرهم ،

---

(١) يراجع ايام العرب لأبي عبدة – المقدمة ص ١٦٦ .

يضاف اليها اصلاحات لغوية وعروضية ومعنوية شملت المتون ، تبدو آثارها في كتاب الحماسة لأبي تمام وفي روايات العلماء الرواة وفق منهجهم الجديد للشعر وأعاريضه .

وهكذا لم يبق لدينا من مكرنات الثقافة البدائية الا ترجمات رديئة جداً من لغات عربية قديمة في عهود وثنية الى لهجات شعبية في عصور اسلامية . وكان اجدادنا الأقدمون اسعد حظاً منا في وقوفهم على الاساطير السومرية ، أصول ملاحمهم ، ثم خلود ادبهم الى يومنا هذا . أما أجدادنا العرب قبيل الاسلام ، وحتى بعده ، فقد ضيعنا ملاحمهم الأولى ، وكذلك الأخيرة ، وضيعنا معها اساطيرها ، وظلّت تتردد في الشعر الجاهلي مهزوزة الصورة وغامضة ، وتلوح من خلال كلمات الشاعر كأنها اصداء في داخل ذهنه ، كالذي يعيه عن عاد وثمود وطسم وجديس . وبالمناسبة فان قصة طسم وجديس أو(يوم اليمامة) تكاد الواحها تكون شبه متكاملة لدينا ، وتبدأ بنفس الحديث الذي تبدأ به ملحمة كلكامش . وبالامكان وضع جدول مقارنات لتوضيح الدورة الملحمية Sycles الثانية لهذه الملاحم العربية ، مع التنبيه الى أن « يوم اليمامة » يكاد يعد مفقوداً بالقياس الى ملحمة كلكامش ، اذ ليس لدينا منه سوى شذرات في بطون الكتب وفي المخطوطات [1] .

ولا أريد أن اطيل فأتحدث عن كل منابع الثقافة التاريخية في الشعر قبل الاسلام وارتباطها جميعاً بآدابنا العربية القديمة (السامية) ، فهذا ما لا يتسع الموضع له هنا ، لكنني المّح تلميحاً سريعاً الى ما ذكره هيرود تس مثلاً في تاريخه عن ثورة حدثت في بابل ، تشبه تفصيلاتها قصة الزباء المذكورة وانتقام الوزير « قصير » الذي جدع أنفه ودخل المدينة بجيش أخفاه في جواليق على ظهور الابل ، موهماً انها تجارة ، فاحتل المدينة (تدمر) ، مما يُعدُّ ربطاً لهذه

(١) المنابع الثقافية الأولى – مجلة الكتاب - العدد ٤ لسنة ١٩٧٥ بغداد .

القصة بقصة بابل القديمة التي تسبق قصة (حصان طروادة) بزمن غير يسير . فليست قصة « الجواليق » متأثرة بحصان طروادة ، بل بما سبق . .

وأما الظاهرة الثانية البارزة في المكونات البدائية للشعر الجاهلي ، فهي تنبعث من عبادة هذه الرموز المتجلية في الشعائر الوثنيـــة المتمثلة في المروءة والكرم والوفاء والشجاعة ونصرة الجار والحليف والضعيف والعفو عند الظفر والمقدرة واتلاف المال في النحر والعقر والعتر والخمر ، وما يترتب على كل شعيرة من هذه الشعائر التي انتهت الى الشاعر العربي قبل الاسلام رموزاً دخلت شعره معنى سامياً رفع به قوماً وحط آخـــرين [1] . وفي امكان البحث العلمي الحديث أن يجمع بدقة كل هذه المظاهر ويعيد بناءها متصلة ببعضها ، فيكون بذلك قد اعطى الصورة الكاملة للبناء الاجتماعي ومنطلقاته العقائدية قبل الاسلام ، بالاستعانة التامة بالفكر الاسلامي الجديد وفق مقارنات علمية ثابتة بين العقيدتين . ولم أقف الى الآن على اي وجود مادي لهذه الشعائر ، ولا عثرت لها على اثر صريح في النقوش والكتابات والمخربشات القديمة ، ولا استطعت أن أقف على أصنام تُعزى اليها ، ولست مبتئساً من هذا ولا يائساً لأن آفاق العلم تنفرج كل يوم عن جديد يحمل البشرى لارباب الدراسات الجديدة ، لكن طائفة كبيرة من اصنام القبائل والجماعات وما يرافقها من الطقوس والتلبيات الشعرية تعكس بوضوح ارتباط الجانب الديني العقائدي بالشعر [2] . على أن الموضوعة الدينية في قائمة الثقافات القديمة العديدة للشاعر تعد اشمل هذه الموضوعات الداخلة في اطار المنابع الالهامية . فمن الضروري التنبيه الى طبيعة فاعليتها في تحريك الالهام الثقافي ضمن العمليـــة الفنية ، وذلك لتَوَزُّع الهاجس الديني في ضمير الفرد العربي قبيل الاسلام بين نوازع وثنية واضحة ، وبين احساسات توحيدية غامضة . فكان العربي القديم

(١) المحبر ص ٣٠٩ .

(٢) الأبيات ضمن معلقة طرفة بن العبد . تراجع المعلقات السبع للزوزني ، والعشر للتبريزي .

وثنياً وموحداً في آن معاً ، تشده الى واقعه طائفة من موروثات العقائد المتروكة في الأرض العربية عن تحدرات توحيدية مغلوبة ، غطت عليها معتقدات وافدة من ديانات وثنية غالبة أو منتصرة ، تتمثل في هذا الصراع الخفي بين الوثني ونفسه ، بما غلب عليه من ثقافة طارئة وما ورث من بقايا (الحنيفية) المطموسة ، فكان ما استقر في أعماقه وما استقبل من رياح الثقافات الدينية الوافدة قد مازج وجدانه الديني واحساسه العقائدي ، وانعكس في صورة من صور التعبير الفني لدى الأديب او الشاعر ، حيث تأخذ الظاهرة شكل عبادة رمزية تتجلى في شعائر وثنية ظاهراً توحيدية باطناً ، تتمثل في المروءة والكرم وما ذكرناه قبل قليل من هذه الشعائر ، أو ما يترتب على كل شعيرة من هذه الشعائر التي انتهت الى الشاعر العربي في موضوعة اجتماعية متوارثة يستخدمها في صيغة من صيغ المديح أوالهجاء وفي مثل هذا التوجيه يمكن أن تدرس حالة الشاعر طرفة بن العبد وفلسفته الغامضة في اتلاف النفس والمال معاً ؛ النفس في الحرب ، والمال في الكرم والخمرة [٢٨] .

الا ايهذا اللائمي احضر الوغـى ... وان اشهد اللذات هل انت مخلدي
فإن أنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يـدي
أرى قبر نحّام بخيل بمـاله ... كقبر غويّ في البطالـة مفسـد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشـدد

ويأخذ الصراع الديني شكله الواضح في الشعر ، وبوجه خاص شكل التمرد على الآلهة المنتصرة كما فعل كليب بن ربيعة حين أزاح عنه آلهة العرب الجنوبيين متخذاً لنفسه حمى يحمي فيه إلّه قبيلته (وائل) حتى كان اليوم الذي أقبلت فيه امرأة يمانية استحلّت حرمة الحمى الإلاهي بأن أرسلت ناقتها فتسببت في اهانة إلّه كليب حين داست على بيضات حمامة آمنة لاذت بالحمى ، والحمامة حتى اليوم مقدسة في هذه الأماكن فاعتبر كليب عمل البسوس عملاً ثأرياً لإلّه اليمن

(٢٨) تراجع ايام العرب لجاد المولى وجماعته .

المغلوب ، فثارت حرب محلية بسببها [1] . ومثل ذلك أيضاً وقع لبني عطفان حين تمردوا على آلهة مكة ، فاضطر ظالم بن سعد بن غطفان بن قيس بن عيلان أن يخرج بآلهة الغطفانيين (العزّى) من الحرم المكي وان يستقل بها في حرم غطفاني يقال له (البس) ويعني البيت ، شيده بارض يقال لها (حراض) فاندلعت الحرب بسببه ، فقتل ظالم بن سعد في هذا اليوم ، وهدم الحرم الغطفاني على يد زهير بن جناب الكلبي ، وبقي الحارث بن ظالم المري ابنه ينتظر اليوم الذي يستعيد فيه مجد أبيه ، فلم يستطع الا بالعودة الى احضان المكيين انفسهم ، واتخاذ آلهتهم آلهةً لقبيلته ، لذلك كان عمر بن الخطاب يقول : « لو كنت مدعياً احداً من العرب لادعيت بني مرة » أي قبيلة الحارث الغطفانية لنسب قديم بين القريشيين وبين المريين ، يذكره الرواة والنسابون في كتبهم ، وهذا النسب هو ما ذكرناه ، قال الحارث يمدح بني لؤي بن غالب حين دخل مكة لائذاً بحرمها وآلهتها

لعمرك انني لأحب كعباً ... وسامة اخوتي ، حبي الشرابا
فما غطفان لي بأب ولكن ... لؤي والدي قولاً صوابا
فلما ان رأيت بني لؤي ... عرفت الود والنسب القرابا
رفعت الرمح اذ قالوا قريش ... وشبهت الشمائل والقبابا
صحبت شظية منهم بنجد ... تكون لمن يحاربهم عذابا
وحشّ رواحة القرشي رحلي ... بناقته ولم ينظر ثوابا
كأن السيف والانساع منها ... وميثرتي كُسِينَ أقبّ جابا
فيا لله لم اكسب أثاماً ... ولم اهتك لذي رحم حجابا

والقصيدة طويلة ، ويلاحظ النفس الديني بالمؤثرات المكية واضحاً فيها ، وذلك كله يعد من صميم المنابع الالهامية والثقافة الشعرية الأولى .

(١) يراجع : الحارث بن ظالم المري لعادل البياتي مجلة كلية الاداب – بغداد – العدد ١٥ ومجلة الأبحاث – اصدار الجامعة الاميركية في بيروت السنة ٢٦ عام ١٩٧٣ – ١٩٧٧ مقالة بعنوان : نصان جديدان عن الدين في الجاهلية ص ٢٧ للدكتور احسان عباس .